تمثيلات المرأة والدين والسياسة في أدب نجيب محفوظ.

الأستاذة: هاجر بكاكرية
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة

ملخص البحث

[تنخرط دراستنا في محاولة الكشف عن أبرز تمثيلات المرأة والدين والسياسة في أدب الروائي المصري نجيب محفوظ، وذلك من خلال الحفر داخل نماذج روائية مختارة تضمنت صور مختلفة للمرأة المصرية كنموذج عن المرأة العربية، وكذا تمثيلات الدين عبر مختلف الخطابات والسلوكات الصادرة عن رجال الدين الذين اختارهم نجيب محفوظ بعناية فائقة. أما في ما يرتبط بتيمة السياسة فإنها لا تظهر مواقفه من القضايا المفصلية بل لجأ محفوظ إلى تقنية تعدد الأصوات التي يرافقها تعدد الإيديولوجيات، ولذا يصعب القبض على آرائه الصريحة إزاء هذه المواقف.
الكلمات الأساسية: المرأة – الدين – السياسة – الرواية – نجيب محفوظ – دراسة – التصوير]

Résume ;

Notre étude s'engage dans le but de révéler les représentations les plus éminentes de la femme, la religion et la politique dans la littérature égyptienne de fiction de Naguib Mahfouz. Pour ce faire, nous avons sélectionné quelques extraits montrant des images différentes de la femme égyptienne.

Nous allons également mettre en évidence la perception de la religion chez Naguib Mahfouz, et, ce par l'analyse des discours des religieux et par l'examen de leurs attitudes. Quant au thème de la politique, Naguib Mahfouz ne révèle pas vraiment ses positions à l'égard des questions axiales. Cependant, il a notamment fait recours à la technique de polyphonie. En conséquence, il est nettement difficile de saisir ses propres positions en termes de religion et d'idéologie .

تمهيد:

تعتبر المرأة والدين والسياسة مواضيع حساسة وهامة ومن الطابوهات التي يتحرز المرء عند الحديث عنها ومناقشتها، وعادة ما تنصب الكتابات النقدية على استجلائها في إبداعات الأدباء وتقييم وجهة نظرهم في هذا الثالوث، وهي مواضيع

حيوية وأساسية في واقع الحياة، لذلك سنركز عليها في هذا المبحث، ونرى كيف تجلت عند "نجيب محفوظ" في أدبه وأحيانا من خلال تصريحاته وحواراته، وكيف خدمته في الوصول إلى جائزة نوبل، هذا لا يعني أن روايات نجيب محفوظ تخلو من مواضيع أخرى لها وقعها وأهميتها، ولكننا سنركز على هذه المواضيع الثلاثة لأنها تخدم موضوعنا، خاصة وأن هناك آلاف الدراسات التي ركزت على كل ما هب ودب في أعماله حتى وصلوا إلى دراسة رسومات أغلفة رواياته، ولكن هذه المواضيع الثلاث هي الأبرز والأكثر جذبا للقراء وكذا للدارسين والنقاد لأنها من الركائز لدى العرب والغرب علي حد سواء، أي من القضايا الإنسانية الشمولية التي يلتقي فيها جميع أبناء المعمورة يقول "نجيب محفوظ":«إن السياسة والعقيدة والجنس كانت المحاور الثلاثة التي دار حولها إنتاجي»[1]

1- المرأة في أدب نجيب محفوظ:

لقد مثلت المرأة في روايات نجيب محفوظ دورا بارزا وحضورا قويا باعتبارها عنصرا مهما في حركة النص، غالبا ما تكون المركز(حميدة ونفيسة وزهرة.....) وحولها يدور الصراع الدرامي للرواية .

وعادة ما يعكس الإنتاج الأدبي وضعين للمرأة إما الوضع الصحيح لها داخل المجتمع أو يعكس صورة مشوهة منها[2].على العموم أغلب النساء اللاتي يصورهن نجيب محفوظ من العاديات أي من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة، وللمرأة صورة نمطية لا تتجاوز كونها امرأة سلبية قنوعة، خائفة متداعية مقهورة خاضعة للهيمنة الذكورية المتسلطة وهي مجرد تابع مقموعة من قبل العادات والتقاليد والظروف الاجتماعية، مثل أمينة زوجة أحمد عبد الجواد في الثلاثية، فهي سيدة مسكينة خائفة محدودة الثقافة مستسلمة بلا شروط لاستبداد الزوج وكذلك ابنتيها مع اختلاف طفيف، ويصفها نجيب سرور بأنها كائن بلا كينونة وبلا إرادة وبلا ذاتية، مضغوطة، مقهورة ومسلوبة الوجود لا تتمتع بحق من حقوق الإنسان أمام سلطة الزوج...[3].

أما الصورة الثانية فهي صورة المرأة المنحرفة (فهي إما عاهرة، أو مومس أو بغي) وعادة يبرز انحرافها ويحاول أن يجعل القارئ يتعاطف معها ويتفهم الظروف التي دفعت بها إلى الخطيئة كالظروف القاسية (الفقر والجهل ونظرة المجتمع.....)، ومع كثرة الأسماء واختلافها في رواياته فالنموذج واحد لا يختلف، فحميدة في زقاق المدق هي نفسها نفيسة في بداية ونهاية وكريمة في الطريق وردة وكميليا في الشحاذ، نور في اللص والكلاب ريري في السمان والخريف.....الخ.

فهو يصور نموذجا واحدا للمرأة المرأة الضائعة في المجتمع، ودائما ما يسبق انحرافها تصوير للبيئة التي تعيش فيها فهناك فقر وقمع واحتياج ونضرب مثالا بحميدة في الزقاق فقد صورها نجيب محفوظ بأنها فتاة جميلة تعيش بين شخصيات الزقاق، شديدة الطمع عيونها تتطلع إلى أبعد من عالمها وتتأثر برؤية الفتيات المتحررات فالدنيا بلا قيمة في نظرها بدون ملابس جديدة، تتمنى العيش خلف قضبان الزقاق لهذا تتمرد على الظروف التي لم تعمل يوما لصالحها فتتجه إلى قلب المدينة الصاخبة وتتزامن أحداث الرواية مع أجواء الحرب العالمية الثانية وآثارها المادية والاجتماعية، ونتيجة لتلك الظروف تدفع حميدة بنفسها إلى الانحراف .

يتعمد نجيب محفوظ دائما إيجاد مبررات تبدو من وجهة نظره معقولة لانحراف حميدة وصويحباتها في رواياته، كما لم يصور يوما العاهرة بسلبية مطلقة فعادة ما يضفي عليها الرقة والطيبة.

وبالبحث في مجمل رواياته لا نجد غير هاتين الصورتين للمرأة إلا فيما ندر، ومن الصور النسائية التي أضفى عليها بعدا إنسانيا نظيفا صورة الأم مثل الأم أمينة في الثلاثية وذلك بتركيزنا على أن أمينة من الطبقة المتوسطة التي ترى وظيفة المرأة في رعاية أبنائها والحفاظ عليهم بتوفير الأكل وغسل الملابس أي القيام بالشؤون المنزلية على أكمل وجه، وبين الحين والحين يبث صورا أخرى للمرأة تختلف عن المعتاد ولكنها تبقى نماذج قليلة وحضورها خافت مقارنة بالنموذجين المعتادين في رواياته نحو المرأة القديرة والقوية مثل حماة بنات سي السيد فهي امرأة لها كلمتها

ولكنها غير عربية، وهنا إشارة مبطنة إلى الاختلاف الحاصل بين المرأة العربية المقهورة والمرأة الأجنبية، كذلك شخصية سمارة بهجت في رواية "ثرثرة فوق النيل" فهي صحفية شابة مهتمة بالمسرح لا تتعاطى الحشيش كباقي الأفراد في العوامة فهي تقوم برصد أوضاع العوامة ومحاولة مساعدة أفرادها على الخروج من عالم الوهم والضياع والأباطيل فهي تركيبة نسائية ايجابية نوعا ما.

وبالتالي فأغلب النماذج النسائية التي قدّمها شخصيات سيئة تبرز في عالم الرذيلة دون أن يكون في وعيهن رادع القيم والدين والأخلاق، وهي صورة مغلوطة عن المرأة فهناك نماذج خيّرة ونقية وطاهرة في عالم النساء وهناك المكافحات والمقاومات في غير ابتذال وسقوط ولكنه لم يقدم إلا صورة الانحراف مع تبرير ذلك برغم أنه لا يتماشى وواقع المجتمع الذي ينقله عبر رواياته.

فتقول فوزية العشماوي « أن نجيب محفوظ شديد الاحتفاء بالنساء الخاطئات ويقيم على بعضهن أبنيته الروائية كمحاور رئيسية، أما النساء العاديات مثل نوار خان الخليلي فهن لا يحظين باهتمام الكاتب»[4].

إذن فهو يقدم صورة واحدة للمرأة في رواياته ويستحيل أن يمثل هذا النموذج صورة حقيقية للمرأة في المجتمع المصري وكذا العربي، ولا يمكن أن تمثل هذه الأنماط التي يصورها إلا نسب قليلة هذا فيما يخص الساقطات والعوالم والبغايا والخائنات أما إذا تحدثنا عن الصورة الأولى للمرأة الخاضعة المسيطر عليها فهي تبدو أكثر واقعية وقربا من الحياة الاجتماعية والطبقة المتوسطة، لكن مع هذا هناك أصناف لنساء أخريات غير هاتين أفضل حالا فلو زاوج بين أنواع جيّدة وأخرى سيئة لزال عنه العتب واللوم والنقد الحاد، لذلك يرى عبد الرحمن أبو عوف في هذا أنه « تبسيط ضحل للرمز وللرؤية التي لم يستطع نجيب محفوظ التخلص منها، فهو يرصد نماذج مشوهة وساقطة وعاجزة لكي يضعها في أعماله ويتجنى بذلك على صدق ما يحدث في قلب الواقع المصري من طرح جديد دائم لنماذج نسائية من الثوريين وفتيات الجامعة بالذات»[5]، ولعل هذه الصورة النسائية تخدم رؤية نجيب

محفوظ العامة بداية تجد وجهة نظره صدى لدى المسؤولين عن السينما التجارية وإنتاج الأفلام الذين يستندون إلى عناصر معينة تجذب المتفرج ولا يهمهم التشويه فهي تعتمد أقصد السينما على الغرائز المتدنية المهم عندهم النجاح التجاري لا غير، كذلك يتوافق تصويره للمرأة مع المثال النمطي الذي يحب الغرب أن يراه وأن يصوره فالمرأة العربية من وجهة نظر الآخر الغربي الأوربي دائما تعاني الأمرين مقهورة ولا حقوق لها هي والجوامد شيء واحد تقريبا هذا أولا، ثانيا تحفز الوسائل الإعلامية والكتابات دائما على إعطاء مبررات للتعاطف مع المرأة المنحرفة على عكس صورتها في مجتمعنا، فهي إنسان عادي بحقوقه ولها حرية الاختيار في أن تعمل في نفسها ما تشاء، ويعتبرون هذا من ضمن الحريات الشخصية وحرية الاختيار ويرون أن المجتمع العربي متعصب تجاه المرأة وهذا في نظرهم قصور في الفهم يرجعونه إلى التركيبة الخاطئة لأعرافنا وديننا، فإن وجدوا كاتبا عربيا يتفق مع رؤاهم ويشجع نفس تفكيرهم فلا ريب سيهتمون به وبرواياته.

لذلك نجد "دنيس جونسون ديفز" يقول في أحد مقالاته عن نجيب محفوظ: ...كنت أنتقد رواياته مشددا على سبيل المثال على أن رواية مثل اللص والكلاب تفتقر إلى تلك الدرجة من الجنس والعنف كليهما، التي من شأن القراء بالإنجليزية أن يتوقعوها من رواية بمثل هذه الحبكة... (6).

نلاحظ أن دنيس ديفز جونسون يحث نجيب محفوظ على رفع درجة العنف والجنس في روايته، لأنها الوصفة التي توصل رواياته إلى الآخر خارج الحدود المحلية، فهو يرسم له مميزات خارطة الطريق التي يتفاعل معها الغربي حتى وإن كانت مستهجنة محليا.

خلاصة القول إن المرأة في أدب نجيب محفوظ تحمل صورة نمطية لا تخرج عنها فإما مستسلمة أو منحرفة، في حين أن هذا لا يتوافق وحقيقة المرأة في مجتمعاتنا، هذا لا يعني أن المرأة مثالية في مجتمعاتنا لكنها ليست محصورة في هذين الوضعين فقط هذا قصور في النظرة العامة للمرأة العربية تلتقي وما يحب الغرب أن

يراه من صور المرأة (المتحررة، حرية الاختيار، الابتعاد عن عالم الأسرة والتماسك الأسري، البحث عن حياة أخرى بعيدا عن العادات والتقاليد والأعراف، حقوق المرأة ..... الخ)

2- الدين عند نجيب محفوظ:

العلاقة بين الدين والرواية علاقة معقدة جدلية ومتشابكة لفتت انتباه النقاد على مرّ العصور وكانت مصدرا للاحتفاء ببعض الأدباء أو انتقادهم وعادة ما يركز الدارسون للأعمال الأدبية على إظهار وجهة نظر الكاتب وأعماله من الدين وقدسيته، وأكثر ما يجعل هذا الموضوع محيّرا هالة القدسية التي تكتنف تعامل الإنسان مع العقيدة والإيمان بالقوى الغيبية ولذلك كان دائما من الطابوهات الثلاثة على الساحة إضافة إلى الجنس والسياسة لحساسية هذه الموضوعات وأهميتها .

ومن المتعارف عليه أن النص الديني أسّس للأدب كما حدث في الثقافة العربية فالقرآن شكل ثراء أدبيا مهما، ويبدو أن الأدباء من بينهم نجيب محفوظ يوظفون الرموز الدينية في قالبهم الروائي ونجد أن هذا التوظيف الديني حدث في الأدب الأوربي أولا مع عصر النهضة، يقول وليام بلايك « إن العهد القديم والعهد الجديد يشكلان المنظومة الرمزية للأدب» [7].

وسنتحدث عن نجيب محفوظ وتوظيفه للدين في رواياته، فلا أحد يستطيع أن ينكر أن ظاهرة الانتماء الديني شغلت جلّ اهتمامه، وظهرت بوضوح في أغلب رواياته مع أول رواياته الاجتماعية، فغالبا يجسد صراع الأقطاب المختلفة على الساحة الحياتية وكيفية تعاملها في الحياة انطلاقا من خلفياتها الفكرية، أي هناك دائما حضورا لشخص ممثل للعقيدة الدينية الإسلامية وآخر ممثل للفكر الاشتراكي وهكذا مثل "مأمون رضوان" في القاهرة الجديدة و"علي طه"، واستمر نجيب محفوظ في تسليط الضوء على هذه النماذج في باقي رواياته نحو ما جاء في "خان الخليلي"، حيث كان "أحمد راشد" امتدادا فكريا لعلي طه وأحمد عاكف ممثل للتفكير الديني.

ويظهر ذلك أيضا في رواية "السكرية" وغيرها، ولا يسعنا المجال لأن نعرض لجميع الأمثلة بالتفصيل.

نعتقد أن نجيب محفوظ لا يلتزم الحياد عند عرض الشخصيات الدينية بل يقحم أفكاره الخاصة التي يمكن أن نكتشفها من خلال الآتي:

أ-الشخصيات الدينية:

تتعدد الشخصيات الدينية في روايات نجيب محفوظ وتغلب على معظمها نفس المواصفات والطباع مع اختلافات بسيطة بين شخصية وأخرى وسنسوق بعضا من الأمثلة الموضّحة (صور الشيخ في رواياته):

- الشيخ توكل: «عائلة الشيخ توكل هي أعجب عائلة في حارتنا، بها قارئ قرآن ضرير مجدور الوجه يلفت الأنظار بقصر قامته وضخامة رأسه » [8].

- الشيخ طه: « عدلية إذا جاء الشيخ طه فاستقبليه بلطف وإنسانية قطبت عدلية ساخطة وقالت بتأفف لكنه رجل قذر يا ستي » .

وفي موضع آخر عن الشيخ طه دار هذا الحوار: ألا تتعلمين اللغة العربية، فضربت بقدميها الأرض وقالت « يدرسها لنا شيخ، رجل ثقيل الدم، يضع على رأسه عمامة مضحكة ثم إن هذا الشيخ قذر، لمحت مرة يده فرأيت أظافره سوداء كالطين»[9].

وأظهر كذلك شيخا في الثلاثية وصفه بأنه «في جلباب رث الثياب لا لون له وكركوب متقزز ومعصوب الرأس بتلفيعة من وبر »[10].

هذا بعض من فيض النماذج ولا يمكن أن نجمعها كلها، ولكن الذي نستطيع قوله أن أغلبية شخصياته الدينية أتت بهذا التوصيف وبالتالي التشويه الظاهري لها فهي تحمل خطوط ثابتة في مواصفاتها (المنظر المقزز، الإصابة بالعاهات، الإهمال في المظهر، انتفاء النظافة) وهذا لا يتقاطع في شيء مع المفاهيم التي نادى بها الدين الإسلامي.

ركّز أيضا على نمط ثان من الشخصيات الدينية حيث تميزت بالسلبية وعدم الفاعلية في المجتمع، فتكتفي بالعبادات العامة كالصلاة والصوم، والزهد، والصدقة وتنأى بنفسها عن المشاركة الفعالة في الحياة الاجتماعية، ونعرض مجموعة من الأمثلة :

– في حكايات حارتنا مثلا، يقول: «بدا ذلك كله منطقيا إلا عند الشيخ أمل، تابع الشيخ الجريمة باهتمام جنوني مضى يحترق من صميم أعماقه وينهار عصبا بعد عصب كان ورعا تقيا، ولكن شجاعته كانت دون ورعه وتقواه هرول إلى الزاوية» [11]، وكانت نهايته الجنون .

ومن أبرز الشخصيات الدينيّة التي ركّز عليها النقاد في بحوثهم شخصية الشيخ رضوان الحسيني في الزقاق، لأن نجيب محفوظ أظهره بمظهر أنيق، فهو صاحب طلعة بهية، طيّب كريم الخلق صبور على نوائب الدهر، مع ذلك فقد صوره بأنه مكتفي بالتدين ومبتعد عن دور شيخ الدين الفاعل في الحياة.

وجاء وصفه على لسان حميدة عندما رفض خطبتها من الرجل الغني « أنا لا أتهمه في كثير أو قليل ولعله تأثر بقراءة الفاتحة كما ينبغي لرجل يرسل لحيته مترين فلا تسأليه عن زواجي واسأليه إن شئت عن تفسير آية أو سورة، أمّا والله لو كان طيبا كما تزعمون لما رزأه الله في أبنائه جميعا»[12].

إذن رغم وصفه بصاحب الطلعة البهية واللحية الصهباء والنور المشع، لكنه يستدرك أن هذه السماحة والإيمان والتدين نبتت من حياة كانت مرتعا للخيبة والفشل: (عدم التوفيق في نيل الشهادة والسلبية وعدم الفاعلية والابتلاء في أبنائه، وحمله بعض الصفات المستهجنة في رجل الدين كالفظاظة وسلاطة اللسان واصطناعه الحزم والمهابة مع زوجته فقط). لذلك يقول عبد المحسن طه بدر « يصعب أن نعرف هل يسخر المؤلف من الشخصية أم هل يرضي عنها»[13]

– الشيخ عفرة الذي ربى عاشور الناجي إلى سن العشرين فلم يعلمه شيئا ذا فائدة يكتسب منه قوت يومه حتى ظهر أخوه درويش المنحرف فعلمه ما يقيه غدر

الحياة، وجعل الشيخ عفرة كعادته يعاني من تشوه فهو ضرير ولا يتميز إلا بحفظ القرآن أما دوره في المجتمع فمنعدم [14].

ما طرحناه هو الطابع الغالب في رواياته حتى عندما يحاول أن يصور شخصية دينية متوازنة وفاعلة يجعلها معرضة للابتلاءات اللامتناهية واللامحتملة مثل شخصية محمد حامد برهان في رواية الباقي من الزمن ساعة جعله يعتقل ويفقد إحدى ساقيه وإحدى عينيه وبهذا لا يمكنه أن يكون فاعلا لا في المجتمع ولا حتى في أسرته الصغيرة فابنته سهام ترفض تدينه وترى فيه فكرا عاجزا لذلك تقول« هذه الشقة لا ينقصها إلا مؤذن كي تصبح مسجدا » [15]

لكن البعض يرى في هذه الصورة مجرد نقد لبعض الممارسات والصفات الخاطئة في الرجل المتدين لا أكثر ولا أقل كما يقول ديب علي حسن«نجيب محفوظ قد تناول بعض الممارسات الخاطئة حول العقيدة والدين في الثلاثية والمدق وغيرها»[16].

هذا يحيلنا على سؤال مهم لماذا أغلب الشخصيات تحمل صورة نمطية واحدة ، أيفتقد حقا أن نجد في مجتمع بأكمله شخصية دينية فاعلة في المجتمع متمسكة بدينها ذات مظهر بهي وجذاب ومحبوبة بين الناس وتعرف كيف تخلق توازنا بين الدين والدنيا كما نص الدين الصحيح، لذلك يحق للنقاد أن يضعوا علامات تعجب واستفهام على هذه النقطة فالسيد أحمد فرج ركّز على هذا الجانب في أدب نجيب محفوظ وقد قال «أن الشخصية الدينية عقيمة غير ايجابية متخلفة وكل الشخصيات الايجابية عكس المتدينة كما في القاهرة الجديدة والحرافيش وخان الخليلي وهذا قد يجوز في شخص ولكنه ليس في كل الشخصيات » [17].

وهذه الصورة النمطية لرجل الدين في روايات نجيب محفوظ تحيلنا على الفكر العلماني وتأثيره على المثقفين والأدباء في الوطن العربي، كما نستطيع أن نقرأها قراءة أخرى وهو الصراع السياسي الدائم بين الأحزاب الوطنية المصرية وبين حزب الإخوان المسلمين، فهناك وعلى مدى التاريخ الحديث خوف من الدولة ذات المرجعية الدينية

وتجسد هذا في أغلب الوطن العربي منها مصر، فالصراع مستمر بين الأحزاب التي تؤمن بعلمانية الدولة وبين الأحزاب الدينية لهذا انساق عدد كبير من الأدباء إلى هذا الصراع وكان من بينهم نجيب محفوظ.

ب–الصراع بين العلم والدين:

يتحدث نجيب محفوظ في رواياته عن قضية العلم والدين كثنائية ويرى النقاد أن الصراع بينهما يمثل فيها ملمحا أساسيا، خاصة أن العلم بات إشكالية رئيسية في القرن العشرين ونخص هنا النموذج الغربي الذي فصل الدين عن مجريات الحياة واكتفى بالعلم للوصول للحقيقة عن طريق التجارب والاستنتاجات، وهذا ما جاء على لسان رجاء عيد معلقا على قضية الصراع بين العلم والدين عند نجيب محفوظ « يمثل نجيب محفوظ في رواياته صورة للصراع بين العلم والدين ففي عصر أصبح العلم فيه كأنه إله جديد، تمزقت في البعض وشائج ذلك اليقين الديني ويرى أن يقبض عليها من جديد أملا في أن يكوّنه العلم في قدرته يوما ما أن يهبه هذا اليقين الذي يتزعزع وإن لم يكن قد ذهب »[18].

ولعل ما جعل النقاد يطلقون هذا الحكم على نجيب محفوظ ما أورده على لسان مصطفى المنياوي في الشحاذ« إني مؤمن بالعلم والعقل » [19].

كذلك ما قاله على لسان المحامي في رواية خان الخليلي: «لا غنى عن التسلح بالعلم للمكافح الحق لا للاستغراق في تأمله ولكن لتحرير النفس من أصفاد الأوهام والترهات فكما أنقذتنا الديانات من الوثنية ينبغي أن ينقذنا العلم من الديانات »[20].

كمال أيضا في قصر الشوق يقول « سيكون في تحرره من الدين أقرب إلى الله ما كان في إيمانه به فما الدين الحقيقي إلا العلم، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم هكذا استيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة مخلفا وراء تلك العاصفة التي صرع فيها الجهل حتى

صرعه حدا فاصلا بين ماضي خرافي وغد نوراني بذلك تنفتح له السبل المؤدية إلى سبيل العلم والخير والجمال»[21].

وقد صّور في رواياته شخصيات قلقة متخبطة لا تعرف لها طريقا واضحا تتبعه فتتنقل بين عدة انتماءات ولعل مرجع هذا إلى فكره الفلسفي ودراسته للفلسفة فالقارئ لا محالة يتأثر بما يقرأ في اللاوعي، ونجيب محفوظ من المحتفين بالفلاسفة وآرائهم، و عادة يخفف نجيب محفوظ ما يبثه في رواياته بتصريحاته وكتاباته الصحفية التي ترصد واقعه الفكري والثقافي فنجد آراءه متزنة أقرب إلى الفكر المعتدل الموافق لصوت الشارع ونضرب مثالا بمجموعة من أقواله:

– « من نعم الله علينا أن ديننا دين دنيا كما أنه دين آخرة ».

كذلك «الدين من الناحية التاريخية هو المعلم الأخلاقي الأول للبشرية »، يقول أيضا «لكن أحدا لا يستطيع أن يفصل بين الدولة وبين الدين نفسه إلا إذا أرادها دولة بلا قيم ولا أخلاق»[22]

هذا الاختلاف يربك الدارس ولا يمكنه من تبين حقيقة موقف نجيب محفوظ على الوجه الجلي ، لذلك نجد من شن هجوما شرسا عليه وحمله ما جاء على لسان شخصياته ورأى في ذلك سببا لبلوغه نوبل، كونه يوافق أهواء الغربيين في رؤيتهم للدين والعلم أمثال السيد أحمد فرح يقول: « أن نجيب محفوظ كاتب يعي ما يقول جيدا فهو الذي يجعل محور عالمه يدور حول القضايا التي يؤمن بها، وبها ينطق الشخصيات ويحركها في صور من صنعه حتى إذا واتته الفكرة نطق بها في موضعها الذي يريد على لسان الشخصية»[23].

وعلى نفس المنوال يتحدث رجاء عيد« أنه في مختلف الصور التي يعرضها نجيب محفوظ لفكرة الإله يبدو أثر فكره الفلسفي مثلما يفوح العطر من الورد بل يتخذ من أبطال قصصه في بعض مواقفهم ما يمثل صورة موازية لبعض مواقفه في بعض فترات حياته الفكرية والنفسية، إلا أن ذلك بالضرورة لا ينطبق تماما كما يتطابق المثلثان وإنما نحس خلال عرضه الفني بأن هناك وشائج خاصة تربط بين

البطل وبين المؤلف حتى أنه من الممكن في بعض اللقطات السريعة أن تستبدل إحداهما بالآخر وأنت مطمئن لما تفعل»[24].

في هذا الخصوص بالذات – الصراع بين الدين والعلم – يرجع الدارسون إلى الخلفيات الفكرية وتأثره بأستاذه سلامة موسى حيث قال أنه يؤمن بالعلم والاشتراكية إيمانا قاطعا ومنذ دخلا عقله لم يخرجا، وهذا ما كان في روايته المثيرة "أولاد حارتنا" وما جعل الجميع ينتفض رافضا لها ومكفرا إياه.

ويشبه الأب جومييه هذا الصراع بين العلم والدين عند نجيب محفوظ بما انتاب شباب أوربا منذ خمسين عاما عند بزوغ العصر العلمي الحديث، فراحوا يتلمسون تأويلات لنصوص التوراة والإنجيل تتفق مع النظريات التجريبية .

في المقابل يرفض نقاد آخرون هذا الهجوم الشرس مثل محمد حسن عبد الله فيحاول إقناع الدارسين بأن الآراء التي وردت على لسان أبطال رواياته ليست آراء نجيب محفوظ، خاصة تلك التي تتعلق بآراء وأفكار تمس العقيدة كما أنه يرى أن سرد هذه الآراء والأفكار من قبيل إكمال الصورة الاجتماعية في الرواية ولا يهدف منها إلى أبعد من ذلك وأنه يعرضها كنموذج من النماذج التي يغص بها المجتمع والتي تحتوي على ما هو غريب وشاذ[25].

ويتقارب معه في الرأي ما قاله سيد الوكيل « من أن نجيب محفوظ يفرق بين الدين والخطاب الديني، فالخطاب الديني هو اجتهاد بشري لفهم الدين معرّض للخطأ والصواب أما الدّين فهو جوهر يجسّد قيم الجمال والخيّر والعدل»[26].

فالشخصية الدينية لا تصل إلى درجة الكمال في أعمال نجيب محفوظ ما لم تجمع بين العلم والدين، ما يقصده سيد الوكيل جاء في تصويره لحالة الانفصام بين الدين كجوهر وبين استغلاله كمظهر شكلي وهو خط أساسي نجده في عدد من رواياته كأحمد عبد الجواد في الثلاثية وتنويهات عدة في رواية المرايا وغيرها .

ج– البحث عن الله:

يعد نجيب محفوظ من أبرز الأدباء المعاصرين الذين شغلتهم قضية الدين وعلاقة الإنسان بالله فالمطلع على أعماله يجد لا محالة تصريحا أو علامة تثير هذه القضية من قريب أو بعيد.

وأبرز كتاب نقدي تناول هذه النقطة كتاب الله في رحلة نجيب محفوظ لجورج طرابيشي، وقد عقّب نجيب محفوظ على دراسته تلك بالثناء والمدح ووافق ما توصل له من قراءات بقوله: « بصراحة أعترف لك بصدق بصيرتك وقوة استدلالك ولك أن تنشر عني بأن تفسيرك للأعمال التي عرضتها هو أصدّق التفاسير بالنسبة لمؤلفها »[27].

وعني الكاتب بدراسة رؤية نجيب محفوظ لله ولعلاقته بالبشر من خلال مجموعة من أعماله الرمزية كأولاد حارتنا وقصة الزعبلاوي والطريق والشحاذ وثرثرة فوق النيل فالكل يبحث عن السرّ المغلق كما يقول رجاء عيد وينتهي دون أن يجده وإن وجده كما في الزعبلاوي لا يحقق المراد الذي سعى بسببه للبحث عنه ويستمر في توهانه .

كأني بنجيب محفوظ يرى أن البحث المستمر عن الله والسؤال عن وجوده وحقيقته ناتج عن تواكل الإنسان وكذلك حيرته في قضايا وجودية ميتافيزيقية عدة كالحياة والموت والقدر القضاء .....و غيرها.

فالبحث عن الزعبلاوي انتهى دون أن يتحقق مرام الباحث، وفي أولاد حارتنا مات الجبلاوي واستمر عرفة، وفي الطريق لم يعثر صابر على سيد الرحيمي وكذا عمر في الشحاذ فقد اعتزل جميع مناحي الحياة دون أن يعثر على ما يصبو له من راحة وما يحدث فجأة يكون كالحلم أو غيبوبة.

ولو أردنا أن نبرأ ساحة نجيب محفوظ من جملة الاتهامات التي لصقت به في هذا الصدد وذلك باعتبار الأدب وثيقة غير تاريخية تؤخذ كل كلمة فيه على محمل الجد إذ يقتبس من النص المقدس ولا يقاربه من الزاوية الدينية البحتة وإلا

اندرج في باب العقل بل يؤوله حتى يتسنى له نقله من المستوى الميتافيزيقي إلى المستوى البشري ويوظّفه في مشروع إنساني سياسيا كان أم اجتماعيا.

إلا أن القراءات الغربية لهذه الروايات والإسراع إلى ترجمتها قبل غيرها من الروايات الاجتماعية على نحو ما نجده مع قصة الزعبلاوي يحول دون ذلك، حتى وإن كان نجيب محفوظ بريئا، مع أنني لا أعتقد ذلك لأنه لا يوجد كاتب واعي لا يدرك الأبعاد الفكرية لأعماله ، نجيب محفوظ يدرك جيدا الأفكار التي تحملها رواياته ، وهو يعبر عن آرائه الخاصة من خلالها وهو أذكى من أن يجعل أفكاره الخاصة تظهر واضحة جلية لكل قارئ وناقد.

فالأكاديمية السويدية على لسان عضوها ستوري ألن أشادت بالفكرة التي طرحها نجيب محفوظ في أولاد حارتنا ، ورأت فيها دهشة وقال أنه قسمها إلى مئة وأربعة عشرة فصلا كما القرآن وربط بين موت الجبلاوي وموت الله .

إننا نرى أن السبيل الذي وظّف به نجيب محفوظ الدّين في رواياته كان في صالحه للفوز بنوبل، فقد كان أقرب إلى التوصيف الإستشراقي لرجل الدين وكذلك في قضية الصراع بين العلم والدين وافق أفكار النظريات الغربية .

ج–السياسة عند نجيب محفوظ :

يتسلح الروائي بالأدب كوسيلة من أجل إسماع كلمته والمشاركة برأيه في واقع الحياة وعادة ما يتوقف النقاد عند العلاقة بين الأدب والسياسة، وكيف تتجلى الآراء السياسية للأدباء من خلال صفحات إبداعاتهم، ونجيب محفوظ واحد من هؤلاء فقد اهتم الدارسون بتحليل رواياته وكذا تصريحاته للخروج بمواقفه السياسية والحكم عليها.

أغلب الدراسات التي أجريت في هذا الجانب اتفقت على نفس الآراء تقريبا، فرواياته مشبعة بالسياسة خاصة أنه من رواد الرواية الواقعية التي تهتم بتفاصيل الحياة وحوادثها، كما أنه عاصر أحداثا تاريخية مهمة في حياة مصر وكذا العالم ، عاصر الصراع السياسي بين القوى الوطنية التي كان يمثلها حزب الوفد وبين

القوى الرجعية التي يمثلها القصر والاستعمار عاصر أيضا الثورة وانشقاق الأحزاب السياسية عاصر هزيمة (1948-1967) والعدوان الثلاثي على مصر وغيرها، لهذا يستحيل أن يتجاوز كاتب كنجيب محفوظ كل هذه الأحداث دون أن يطرحها في أعماله، وقد كانت هذه الأخيرة منبرا لطرح أفكاره السياسية، فقد ظهرت بصمات هذه الأحداث على شخصيات رواياته وأحداث حياتهم وفي هذا يقول نجيب محفوظ« في جميع ما أكتب ستجد السياسة لأنها محور تفكيرنا كله، الصراع السياسي موجود حتى في أولاد حارتنا»[28].

لكنه اعتمد في ذلك اللجوء إلى الرمز وتغيير ملامح بعض الشخصيات وإضفاء بعض الخيال على الأحداث أو العودة إلى وقائع تراثية، وبهذا فالتجلي السياسي في إبداع نجيب محفوظ لا يتسم بالصدام والصراع بمعنى أنه لا يعبر عن آرائه بوضوح تام يبين وجهة نظره الخاصة إلا في القليل النادر، لأنه يخاف الصدام مع الجهات المسؤولة وبذلك تقض مضجع أمنه وراحته، فهو متحفظ جدا في الإدلاء بآرائه السياسية في حياته اليومية أما في رواياته -كما سبق وقلنا- يعتمد طرق تبعده عن الاستهداف المباشر الواضح والقراءات الجلية فهو يستخدم إبداعه بمثابة التعويض الذي يعادل موقفه المحافظ في حياته العادية، لذلك لم نره ينتمي إلى أي حزب سياسي وحافظ على استقلاله.

يقول: «أنا أحتفظ باستقلالي السياسي من أجل أدبي حتى أستطيع أن أرى السلبيات »[29].

وقد ركّز نجيب محفوظ على الشعارات الكبيرة التي تنص عليها كل الشرائع السياسية في العالم من مثل العدالة الاجتماعية والحرية فيقول«أنا أعيش دائما في الخانة التي تلتقي فيها الديمقراطية بالعدالة الاجتماعية وأنا أدافع دائما عن هذا الرأي »[30]، لأن هذه المفاهيم الكبرى لا يمكن لأحد أن يتخذ موقفا مناهضا منها، وقد وصفه غالي شكري: «بأنه أشجع فنان وأجبن إنسان»[31].

ومن الإيجابيات التي ميزت نجيب محفوظ سياسيا أنه طوال رحلته الإبداعية لم يوظف عمله في خدمة شعار سياسي سلطوي إلا ما كان في مراحله الأولى من ميله لحزب لوفد وزعيمه سعد زغلول وذلك من منطلق الانتماء الفكري لا الانتماء العضوي.

كما أنه أشار إلى العديد من القضايا السياسية في إبداعه كالاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية والدكتاتورية والإسلام والليبرالية، فعدد كبير من رواياته فيها ممثل لهذه الانتماءات الموجودة في الساحة ويظهر وجهات نظرهم واختلافاتهم.

مع ذلك نجد روايات صرح فيها نجيب محفوظ بآرائه السياسية كالكرنك التي تناقش ثورة 1952 وتبعاتها، رواية أمام العرش التي يحدد فيها موقفه من حكام مصر منذ الملك مينا حتى السادات وشرح فيها ايجابيات وعيوب كل زعيم، ثرثرة فوق النيل تنبأت بهزيمة 1967 وعبر من خلال شخصيات الرواية عن التفكك الاجتماعي والأخلاقي في المجتمع المصري.

على العموم نجيب محفوظ من الأدباء الذين يركزون على العموميات في طرحهم للقضايا السياسية ويتمسكون بالمفاهيم الكبرى كما أنه ينأى بنفسه عن الأحداث السياسية اليومية والصراعات الآنية بين حزب وآخر.

ويقول عمار علي حسن عن تعاطي نجيب محفوظ مع السياسة « إنه أمر يستحق الانتباه لأنه قدم نموذجا لكيفية استخدام الأدب في التعبير عن المواقف السياسية دون أن يسلك طريقا سياسيا بحتا كما فعل غيره من الأدباء» (32).

ولعل أبرز رأيين سياسيين صرّح بهما نجيب محفوظ دون تحفظ هما ، موقفه من اتفاقية كامب ديفيد الذي لم يغيره ولم يتراجع عنه ، أما موقفه الثاني فهو انتقاده للمرحلة الناصرية، ولا يعتبر هذا الموقف ذا وقع كبير لأنه جاء بعد رحيل جمال عبد الناصر.

وعدم خوضه في غمار السياسة صراحة أمّن له حياة بعيدة عن شقاء الرقابة والسجن والصدام مع الحكام وحتى المعارضين إلا فيما ندر، حتى أنه أوقف

كتابة مقاله بالأهرام بسبب انزعاج السادات من ذلك على عكس غيره من الأدباء نحو يوسف إدريس ، هذا الحياد كان في صالحه أمام لجنة نوبل وقد زاد في دعمه موقفه السياسي الوحيد الذي صرح به دون تحفظ يذكر هو والسلام مع إسرائيل.

هوامش:

(1) صبري حافظ، نجيب محفوظ مصادر تجربته الإبداعية ومقوماتها، مجلة الآداب، العدد121، دار الآداب، بيروت 1973/7/7، ص331

(2) عبد الهادي صابر، المرأة في أدب نجيب محفوظ، موقع ديوان العرب، 30 مارس 2006، تاريخ الدخول(2010/9/10).

(3) نجيب سرور، رحلة في ثلاثية نجيب محفوظ، دار الفكر الجديد، ط1، 1989، ص38

(4) فوزية العشماوي، المرأة في أدب نجيب محفوظ ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1 ، 2002، ص50

(5) عبد الرحمن أبو عوف، الرؤى المتغيرة في روايات نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1991، ص 147

(6) دنيس ديفز جونسون ، عبقرية إستشراق المستقبل ، ترجمة كامل يوسف حسن ، مجلة العربي، العدد 577، وزارة الإعلام، الكويت 1ديسمبر2006 ، ص92

(7) محمد حسين أبو الحسن ، أولاد حارتنا وعلاقة الدين بالرواية، موقع إسلام أون لاين، 2006/9/3، تاريخ الدخول(2010/12/16).

(8) نجيب محفوظ، صدى النسيان، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه ، د ط، د ت، ص 143.

(9) نجيب محفوظ، خمارة القط الأسود، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه ، د ط، د ت ، ص170- 171

(10) نجيب محفوظ، السكرية، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه ، د ط، د ت، ص21

(11) نجيب محفوظ، حكايات حارتنا، الحكاية 44، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه ، د ط، د ت، ص93

(12) زقاق المدق، ص 129

(13) عبد المحسن طه بدر، الرؤية والأداة نجيب محفوظ ، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1984، ص353

(14) رواية الحرافيش، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه ، د ط، د ت.

(15) نجيب محفوظ، الباقي من الزمان ساعة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه ، د ط، د ت، ص137

(16) ديب علي حسن، نجيب محفوظ من الإلحاد والإيمان ، دار المنار ، بيروت، ط1، 1997، ص156

(17)السيد أحمد فرج، أدب نجيب محفوظ ، إشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط1990، 1، ص147

(18) رجاء عيد، دراسة في أدب نجيب محفوظ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 1974، ص62.

(19) نجيب محفوظ، الشحاذ، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، د ط، د ت، ص146

(20) نجيب محفوظ خان الخليلي، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، د ط، د ت ، ص89

(21) السكرية، ص375

(22) نجيب محفوظ، حول التدين والتطرف، إعداد:فتحي العشري، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1996، ص79،81، 138(على الترتيب)

(23) السيد أحمد فرج ، أدب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب، ص226

(24) رجاء عيد ، دراسة في أدب نجيب محفوظ ، ص 57

(25) محمد حسن عبد الله، الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص74

(26) سيد الوكيل ، الدين في أدب نجيب محفوظ ، مدونة سيد الوكيل 7 /2009/1، تاريخ الدخول(2011/1/4).

(27)جورج طرابيشي ، الله في رحلة نجيب محفوظ ، دار الطليعة، بيروت ، ط 3 ، 1988 ، غلاف الكتاب رسالة من نجيب محفوظ إلى المؤلف

(28) جمال الغيطاني ، نجيب محفوظ يتذكر، ص78

(29) نجيب محفوظ نوبل 1988 كتاب تذكاري ، وزارة الثقافة المصرية، 1988، ص35.

(30) عمار علي حسن ، روايات محفوظ السياسية بين التلميح والتصريح ، موقع أسلام أون لاين، 2001/12/29 تاريخ الدخول(2011/1/4).

(31) المرجع نفسه.

(32) المرجع نفسه.